«صندوق العجب
«صندوق الدنيا
«تعالوا وتفرجوا على ما كان
«وعلى ما هو كائن. شيء يرفض أن يصبح
«في خبر كان
«تعالوا يا صناديق الدنيا
«يا أولادي».

فالروائي اتجه، اذاً، الى «صندوق الدنيا» رديفاً لاتجاهه الى الاولاد. وهو، خلال ذلك، ترجم ارهاصه بما سوف ينبثق عنه الواقع من تمنيات آتية. ولا يصبح من الصعب علينا ان نفهم دلالات صياح صاحب الصندوق، والفاظه المتوالية: «ولدي... أولادي... طفلتان /الاولاد دون السادسة عشرة / الاولاد... لا تقل الاولاد».

ولا يلبث ان ينشغل عن الاولاد عامداً، ليعيد على أسماعهم رموز السيرة الشعبية وابطالها، كالزير سالم وعنترة بن شداد، والسير التراثية وأبطالها، كالسندباد. وتتوالى المواويل البغدادية، والأمثلة العربية، الى غير ذلك. وأوغل حبيبي في روايته التالية في هذا العالم. ففي «اخطية» نتعرف على قماقم ألف ليلة وليلة ورموزها، وشخصيات المسعودي وجغرافيته، واشعار المتنبي ومغامراته. وهو خلال ذلك كله يستثمر لنا حادثة ازدحام المرور وتوقف السيارات بين ملتقى شارعين بما يصنع شبه «جلطة» ليسرد علينا كيف خيِّل للبعض بما يشبه اليقين وجود فدائي. وتتوالى دوائر الارهاب اليهودي عند ذلك، في حين يتنامى لدينا الحسّ الحاد بالتمرّد والخروج على النص الاسرائيلي.

وخلال ذلك كله، واصل حبيبي في «دفتره الثاني» سعيه بخفة ومهارة شديدتين، ليرسم، عبر اشارات ورموز كثيرة، ما يمكن ان يختصر عنه هذا الواقع الذي يصنع ضد أهلنا في الارض المحتلة. ان مفتتح هذا «الدفتر الثاني» منحنا ذلك الخيط الفضي في الفجر القاتم، وهو الخيط الذي سرعان ما تحوّل، في ما بعد، الى جملة من الخيوط التي تصنع النسيج كله، نسيج الثورة على هذا الواقع. ان هذا المفتتح حمل مقطعين هامّين على النحو التالي:

١ ـ «أرى خلل الرماد وميض جمر ويوشك ان يكون له ضرام» (نصر بن سيار).

٢ ـ «شيء عفن في دولة الدانمارك» (مارسيلاس).

واميل حبيبي، هنا، صبّ ماءً كثيراً في طاحونة الغضب. وهو فعل ذلك حين سعى بدأب ليستعيد حركة الماضي في شكل دائري، حتى اذا ما اكتملت الدائرة عاد لصنع غيرها، وأظهر ما في اسلوبه من السخرية المضاة التي قلّما نعثر عليها لدى معاصريه.

لقد برهن هذا الروائي على ان الخلاص لا يكون في الماضي وحده، وان «ارض الميعاد» العربية لا تكون في الحلم اليوتوبي، وانما يكون حاصل الماضي بالراهن في ذهن متيقظٍ واعٍ حافزاً لصنع التاريخ عند ذروة التغيير.

وهذا ما تقترب منه بشكل أكثر وضوحاً سحر خليفة. فرواية «عباد الشمس» هي روايتها الثانية، وهي تكملة للرواية السابقة «الصبار». وهذا النبات (عباد الشمس) انما يظل دلالة مجازية على الاولاد الفلسطينيين الذين ترعرعوا في مناخ الاحتلال، وفي حضور مرارة الصبار. ومن هنا، فان